أقواس

هل تنفع الذكرى ؟

حين يرحل أحدنا، فجأةً، في مغيبه الأخير، تهبطُ في مثل الفُجاءة أيضاً، ستارةٌ عجيبة، تفصل الشخص عن النص، وتميل بالميزان لصالح النص، كأن غياب الشاعر مستلزمٌ لحضور النص، نصِّه هو.

لكنّ هذا الحضور المباغت للنصّ، لن يظل مباغتاً. أي أننا سوف نجلس، ذات يوم، جلسةً مريحة، على أريكة مريحة، نقلّب النص بأصابعَ مرهفة، وعينين مدققتين، ودمٍ باردٍ: لقد مات السلطان، وبقي حماره!

هل يصحّ الأمر على عبد الوهاب البياتي كذلك؟

أزعمُ أن الأمر يصحّ على عبد الوهاب أيضاً، لكن بعد زمنٍ يطول نسبياً، إذ كان حضور الشخص، في حالة البياتي، أوضح بكثير من حضور النصّ. الناس، إذاً، كانوا يتناقلون بضاعة البياتي، أقوالاً وشتائم، ولا يتناقلون أشعاره. إنه مالئ الدنيا بأخباره وأخبار سواه، شاغلُ الناس بمثالب الآخر. ويندر، ندرة الكبريت الأحمر، أن تُروى عنه أحاديث وأقوال في صميم الثقافة والفن الشعري. بدأت علاقتي مع عبد الوهاب منذ نصف قرن، في العام ١٩٥١ تحديداً، واستمرَّت حيّةً، وكنتُ ممّن سُعدوا بالنجاة من مَقْرَمة البياتي، فلم يذكرني، علانيةً، بسوء.. لكني، مع هذا كله، لم أسمع منه، كلمة واحدة في الثقافة. ولقد حرصت على الإستفسار من الشبّان الذين يلتقونه، عمّا انتفعوا به، بعد طول مجلس معه، وتواتر لقاء، وكانوا يهزون رؤوسهم، كأنهم يحثّونها على تذكُّر، واستعادة، ثم يجيبونني بأنهم لم يسمعوه يتحدث إلا بأخبار الآخرين ومثالبهم (إن كانت ثمت مثالب)، وإلاّ بأخباره وكلُّها رائعٌ يقيناً.

هكذا، سوف تطوى صفحة مجالس السَّمر، بعد أن انفضّ السامرُ، وسكن البياتي تربةً موحشة، غير بعيد عن محيي الدين بن عربي:

«الشيخ، أو الشيخ محيي الدين، في النطق اليومي للناس، وعلى لوحات الحافلات، المتجهة، صعداً، من «الميدان» الدمشقي، إلى هذا السفح الداني من قاسيون، حيث الحيّ الشعبي، والسوق الطويل المتعرج بين المنازل ودكاكين الحرفيين وباعة الزهر والقماش وتمْر المدينة المنورة... الحي الذي يحمل اسم الشاعر منذ أكثر من سبعة قرون، ويضم رفاته، ويحتفظ له، بالنبضة الناصعة للوليّ أو القديس، ويحفظه، كما يحفظ القلب، بين الستائر الخضر والبخور النافذ، والغلائل البيض للصبايا المتعبدات جوار الضريح... صبايا الحيّ، اللواتي سوف ينقلن إلى أبنائهن وبناتهن، مثل ما فعلت الأمهات طوال هذه القرون السبعة – قداسة الشيخ، وبهاءه، وبيتاً له، أو قولاً: القدرة للبشر لا للحجر. مثلاً» ... (من «أفكار بصوت هادئ»).

قيل لي يوم رافقنا البياتي، ظهيرة الرابع من آب، إلى مثواه عند سفح قاسيون، إن عبد الوهاب ألمح إلى رغبته في أن يُدفن جوار محيي الدين بن عربي، وأعتقدُ أنه كان يتمنى أن يدفن داخل المسجد، حيث ضريح الشيخ، لا في

تلك التربة الموحشة، شديدة الانحدار، التي لا يجاور فيها البياتي إلا مصابيح دمشق ليلاً، وإلاّ مهرِّبون رأوا في مهابتها مأمناً.

لقد غالى في طماحٍ غير مبرَّر، وكان خيراً له أن يرقد غير بعيد عن محمد مهدي الجواهري ومصطفى جمال الدين وهادي العلوي، عند السيدة زينب، حيث المساءُ مهرجانٌ للأسى والتأسّي، مهرجانٌ عراقيّ.

إذاً ... أراد البياتي أن يتدبَّر، ويدبِّر، كُلَّ شيء، بدايةً من أمور معاشه، وانتهاءً بمثواه.

كان يقول مثلاً: لديّ الآن ما يكفيني للعيش، مرفَّهاً، خمسين عاماً قادمة...

والحقُّ أنه فعل كلَّ شيء، وبذل كل ما يُبذَل، وما لا يُبذَل، حتى ماء الجبين، بغية بلوغ هذا.

أكان بحاجة إلى هذا كله؟

في العامين الأخيرين، بلغ البياتي، بغتةً، أرذل العمر: كَلَّ بَصَرُه، وانحنتْ قامته، ووهنت خُطاه؛ لم يعد قادراً على القراءة، وتمييز أرقام الهاتف، وتجاوز الكأس الثانية، ومغالبة اللعثمة. أدركَهُ الهرَمُ...

لسانُهُ، فقط، ظلَّ بتّاراً صارماً. (نتذكر حسان بن ثابت!).

جاء عبد الوهاب البياتي، مباشرةً، بعد الإنطلاقة البدئية لحركة القصيدة الحرّة. كان ديوانه «ملائكة وشياطين» بعيداً، البعدَ كله، عن المبادئ العامة لتلك الانطلاقة. أما «أباريق مهشمة» الصادر أواسط الخمسينات، فقد كان بطبيعة الحال، متأخراً عن الإنطلاقة كثيراً؛ متأخراً قرابة جيل.

أخْطأ البياتيّ، الريادةَ ، إذاً.

وهكذا تعيَّن عليه، أن يبذل جهوداً خارقة، ويخوض المعارك، ليجد له مكاناً ومكانةً في بانثيون الخارطة الغنية المعقدة للشعر العراقي، لكنه يصطدم بالجدار تلو الآخر، ويتعثر بهذه العقبة أو تلك، فلا يجد بُدّاً من البحث عن متنفَّس، وعن فضاء لطاقة لم تعد تطيق البقاء رهينةَ احتكامات صعبة في المشهد الشعري العراقي. وهكذا أيضاً بدأت رحلته العربيةّ التي سَيُتَوَّجُ فيها، بيد إحسان عباس، رائداً للشعر الحديث.

|

عبد الوهاب البياتي لم يكن شاعراً، بعد «ملائكة وشياطين»، إلاّ نادراً. كان معلّقاً، ومُلفَّقاً (عشرون قصيدة من برلين)، على شؤون عامّة غامضة، وعلى شؤون خاصة (ثارات وخصومات) لم تكن لتعني عند الآخرين شيئاً: «عيون الكلاب الميتة» ..الخ.

|

أكان مناضلاً ؟ أكان معارضاً؟

أقتطفُ من بيان وكالة الأنباء العراقية، كما أوردته صحيفة «الحياة» بتاريخ السبت ٧ آب ١٩٩٩، الآتي:

«عمل في وزارة الثقافة والاعلام منذ عام ١٩٧٠ (؟*) بدرجة مستشار ، وحظي بتكريم السيد الرئيس صدام حسين بتعيينه مديراً للمركز الثقافي العراقي في مدريد منذ عام ١٩٨٠ حتى بلوغه السن القانونية عام ١٩٩٠».

في ذلك العام بالذات، ١٩٨٠، وكانت الحرب العراقية – الايرانية، السخيفة، بدأت ، سئل عبد الوهاب البياتي، عنا، نحن الشعراء المعارضين، المنفيين، فقال ما معناه : «هؤلاء لا يستحقون المناقشة. يجب تقديمهم إلى المحاكم العسكرية، والحكم عليهم بالاعدام، لأنهم هاربون من الجندية ..».

لكن عبد الوهاب البياتي ، نفسه، سوف يذهب إلى طهران وشيراز واصفهان ومشهد، ضيفاً على الجمهورية الاسلامية، مدعياً الورع والتقوى، في العام ١٩٩٩.

دأبَ البياتي، في المقابلات الصحافية ولقاءات الفضائيات، على إنكار علاقته باليسار المنظَّم (الحزب الشيوعي العراقي تحديداً)، وهو الذي اعتاش ، حتى اللحظة الأخيرة، على بيع هذه العلاقة، ابتداءً من التجائه إلى عبد الناصر، ثم إلى صدام حسين، فالملك حسين، وأخيراً إلى الرئيس حافظ الأسد الذي أكرم وفادته بحقّ.

في آواخر السبعينات، زار صدام حسين (وكان لا يزال السيد النائب) وزارة الإعلام. قال له البياتي : «نحن ، البعثيين الأوائل، جئنا قبلكم، وإننا لَمُهملون». سأله صدام حسين: «ماذا تريد؟». ربما تصور أن الشاعر الكبير سيحدثه عن أمر عامّ هامّ. لكن البياتي قال : «أريد أن اذهب إلى اسبانيا ...». ومثل ما قال سمير عطا الله، أوكَلُوه بيع الطوابع والورق.

قلتُ : «دأبَ البياتي على إنكار علاقته باليسار المنظم (الحزب الشيوعي العراقي تحديداً).

اليوم، وبكل بساطة، أُبيِّنُ أنني كنت أحترمُ البياتي، أمام الناس، حدَّ الصمت عما أَنكَرَهُ، وما كنت راغباً في أن أجادله. لكني أجد لزاماً عليّ الآن أن أقول ما لم أقُلْه من قبلُ:

أُعلنُ، أنني كنت وإيّاه، في خلية شيوعية واحدة، خلية مثقفين مختصة، وأننا كنا نجتمع في بيت الشاعر محمد صالح بحر العلوم (أبي ناظم) بالكاظمية، مع أن البياتي كان مدمن التغيب عن الاجتماعات.

ليتعهّد اللهُ، الرجلين، أبا ناظم، وأبا عليّ، بشآبيب رحمته. أمّا أنا، فسوف أظل أتحمّل، نيابة عنهما، عبءَ الراية الحمراء...

إذاً ...

كيف صار البياتي شاعراً «كبيراً» ؟

كيف أوصلَ ، هو، الناسَ، إلى الإقتناع به؟

أعتقد أنه قام بعملية مركّبة، هي ممارسة السياسة فعلاً، عن طريق نفي السياسة قولاً.

أنت، على سبيل المثال، أميركيُّ الهوى، أو فرنسيُّه، أنت سوريٌّ قوميّ، أو بعثيّ عفلقيّ...

لكنك تعلن طُهرانية الشعر مما هو سياسيّ، بينما أنت محتفظٌ بكل العلائق والمصالح والأوهام التي وهبتْك الصفةَ الأولى.

هكذا، تلغي، بكل بساطة ، سواكَ؛ لتظلَّ أنت، الحرّ العجيبَ، والطائر الغريب...

المغاربةُ، شبّانُهم بالذات، ما زالوا يعتبرون البياتي شاعراً شيوعياً. وكذلك أهل تونس، وطلبةُ جامعاتها... هم يعتبرونه، وهو يبيعهم ، كلَّ يومٍ، بالثمن البخس.

أعتقدُ أن درس عبد الوهاب البياتي، كافٍ، حدّ الإحتراق، لإثبات أننا لسنا أمةً شاعرة؛ بإطلاق.

تُرى ... هل تنفع الذكرى؟

سعدي يوسف
عمان
١٩٩٩/٨/٨

* أظنه ١٩٧٢ حين عاد عبد الوهاب إلى العراق من مصر.